

تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى جَلِيسَةِ تَأَمِّلِيَّةٍ عَلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي تُعَابِقُهُ دَوْلَةُ الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ بِمَحَبَّةٍ وَحَنَانٍ ، وَتَعْفُوبَيْنِ أَحْضَانِهِ مَدِينَةَ ( دُبَيِّ ) بِطَمَأْنِينَةٍ وَسَكِينَةٍ وَأَمَانٍ ، أَخَذْتَنِي قَدَمَايَ إِلَى رُكْنٍ هَادِيٍّ عَلَى الشَّاطِئِ حَيْثُ الرِّمَالُ الدَّافِئَةُ الَّتِي أَحْبَبْتُهَا عَلَى إِمْتِدَادِ أَرْبَعَةِ عُقُودٍ وَتَيْفٍ ، وَجَمَعْتَنِي بِهَا قِصَّةٌ عِشْقٍ رَسَمْتَهُ لَحْنًا شَجَبًا تَجَدَّرَ فِي أَعْمَاقِي لَوْحَةً حُبٍّ ، وَإِطْلَالَ شَوْقٍ أَشَاهِدُهَا عَلَى صَفْحَةِ الْخَلِيجِ لَنْ يَدْرِكُهَا النَّسِيَانُ فِيهِ بَوَابَةُ الْقَلْبِ ، اِمْتَدَّتْ عَيْنَايَ لِلْأَفُقِ الْبَعِيدِ وَأَنَا أَنَا جِي أَمْوَاجِ الْبَحْرِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَانْخِفَاضِهَا ، وَتَنَسَّجُ مَعَهُ أَهْزُوجَةَ الصَّفَاءِ الْأَبَدِيِّ ، وَلَوْحَةَ النَّقَاءِ السَّرْمَدِيِّ ، لِتَعُودَ بِي الذِّكْرَى إِلَى تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي حَطَّتْ بِهَا الطَّائِرَةُ فِي مَطَارِ دُبَيِّ الدَّوْلِيِّ مَسَاءَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَوْسُطِ عَامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَتَمَانِينَ ، تَنَفَّسْتُ هَوَاءَ مَدِينَةِ (دُبَيِّ) لَيْلًا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ؛ الْمَدِينَةَ بِابْتِسَامَةٍ وَاسِعَةٍ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ فَرْحَةٍ عَامِرَةٍ ، وَتَعَمَّقَتْ فِي قَلْبِي أَلْفًا وَسَعَادَةً غَامِرَةً ، وَأَنَا أَنْزَلُ سَلْمَ الطَّائِرَةَ تَأَمَّلْتُ صَفْحَةَ السَّمَاءِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ الصَّافِيَّةِ ، وَكَوَاكِبَهَا مُنِيرَةً ، إِنَّهُ سَلَالُ نُورِ رَبَّانِي يُعَابِقُ الْمَدِينَةَ ، يَنْدَفِقُ نَضَارَةً وَبَهَاءً ، وَعُدُوبَةً وَصَفَاءً ، وَيَمْنَحُ الْمَدِينَةَ دِنَارًا ذَهَبِيًّا ، وَيُعَانِقُ بِمَحَبَّةٍ مَصَابِيحَ الْمَدِينَةِ فِي لَوْحَةٍ صَافِيَةٍ نَقِيَّةٍ ، تَشْتَدُّ بِي الذِّكْرَى وَأَنَا أَرْنُو لَأَمْوَاجِ الْخَلِيجِ ، حِينَمَا شَاهَدْتُ الْمَدِينَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، هَتَفْتُ فِي نَفْسِي "اللَّهُ دَرَكٌ يَا دُبَيِّ!" وَلَكِنَّ الْمَجْدَ وَالْإِبَاءَ ، يَخْتَلِطُ صَوْتُ الْمَوْجِ بِنَسَمَاتِ حَالِمَةِ ، تُسَامِرُنِي ذِكْرَى يَوْمِي الْأَوَّلِ فِي دُبَيِّ حِينَمَا رَافَقْتُ هُدُوءَ اللَّيْلِ فِي هَزِيحِهِ الْأَخِيرِ ، سَأَلْتُ سَائِقَ الْمَرْكَبَةِ الَّتِي أَقْلَنْتِي مِنَ الْمَطَارِ إِلَى أَحَدِ فَنَادِقِ دُبَيِّ عَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي نَعْبُرُهَا لَيْلًا ، أَجَبْتُ : نَعَمْ ، اسْتَطَرَدَ قَائِلًا بِأَسْلُوبِهِ الْخَاصِّ : أَنَا سَائِقٌ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ تَقْرِيْبًا ، إِنَّهُ تَطُورُ مُتَوَاصِلٌ ، وَالْقَدْرُ حَلِيفُكَ ، سَوْفَ تَعِيشُ حَيَاةَ مُسْتَقْرَرَةٍ يَكْتَنِفُهَا الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ ، وَالشُّعُورُ بِجَمَالِ الْحَيَاةِ بِصُورِهَا وَأَشْكَالِهَا كَافَّةً ، وَأَعْرَاقُ مُتَبَايِنَةٍ ؛ يَنْعَمُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَالْمَسْرَاتِ ، تَجْمَعُهُمْ قِيَمُ الْمَحَبَّةِ وَالتَّسَامُحِ وَالْخَيْرِ وَالنَّقَاءِ . أَجَبْتُهُ وَأَنَا أَشْعُرُ بِغَيْبَةِ وَسَعَادَةٍ : إِنَّ هَذِهِ الْقِيَمَ هِيَ جَوْهَرُ الْأَدْيَانِ الَّتِي تَسْمُو بِالْإِنْسَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَلَى وَجْهِ كَوْنِهَا الْأَرْضِيِّ ، وَتَأْخُذُنَا نَحْوَ النَّالِفِ وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ وَالْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ الَّذِي تَنْفَعُ بِهِ الْبَشَرِيَّةَ جَمْعَاءَ بِمَحَبَّةٍ وَإِحَاءٍ . مَا زَالَتْ مَضَامِينُ كَلِمَاتِ السَّائِقِ تَرَدَّدُ فِي خَاطِرِي " نَعَمْ ، يَتَجَسَّدُ هَذَا السُّمُو الْإِنْسَانِي فِي مَدِينَةِ أَبْهَرَتِ الْعَالَمَ . وَتَرَبَّعَتْ عَلَى عَرْشِ الْمُدُنِ ، وَتَنْجَلِي هَذِهِ الْأَبْعَادَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الْإِمَارَاتِ كُلِّهَا . السِّيَاحِيَّةُ ، فِيهِ تَسْنَحُ الزِّيَارَةُ ! لِقَضَاءِ الْأَوْقَاتِ الْمُتَمَتِّعَةِ حَيْثُ الْفَنَادِقُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْحَدَائِقُ وَالْأَسْوَاقُ التِّجَارِيَّةُ . الْمُنْتَشِرَةُ فِي ( دِيرَةِ وَرِّ دُبَيِّ ) ، سَتَجِدُ فِي رُبُوعِهَا مَا يَسْرُكُ يَا صَدِيقِي . وَجَدْتُ نَفْسِي فِي حُجْرَتِي بِأَحَدِ الْفَنَادِقِ ؛ أَفْضِي لَيْلَتِي الْأُولَى فِي دُبَيِّ ، تَعُودُ ذَاكِرَتِي إِلَى مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ الثَّانَوِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ سِنِينَاتِ الْقُرْنِ الْمَاضِي حِينَمَا يَتَهَادَى صَوْتُ مُعَلِّمِ الْاجْتِمَاعِيَّاتِ مُوَكِّدًا بِأَنَّ مَدِينَةَ ( دُبَيِّ ) مِنْ أَهَمِّ الْمَحَطَّاتِ الْمُبَشِّرَةِ بِمُسْتَقْبَلِ عَالَمِيٍّ عَلَى ضِيفِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنَّ قِيَادَتَهَا تَعْمَلُ بِتَفَقُّهِ وَاقْتِدَارِ عَلَى بُزُوغِ نَجْمِهَا فِي الْمَحَافِلِ الْمَحَلِّيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ ، وَمَا زَالَتْ الذِّكْرَى تُخَامِرُنِي عِنْدَمَا نَوَّهَ - أَسْتَاذُنَا - بِأَنَّ مَرَحَلَةَ التَّطَوُّرِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمُنْتَمَامِي تَدْرِيْجِيًّا قَدْ انْطَلَقَ وَبَوْتِيرَةٍ عَالِيَةٍ فِي الْعَامِ ١٩٥٩ تَزَامَنًا مَعَ الْيَوْمِ الْعَالَمِيِّ لِتَخْطِيطِ الْمُدُنِ الَّذِي يُصَادَفُ يَوْمَ الثَّامِنِ مِنْ نُوْفَمْبَرٍ فِي كُلِّ عَامٍ. تَنْهَالُ الذِّكْرِيَّاتُ سَلَالًا مُتَدَفِّقًا وَأَنَا أَعَانِقُ أَمْوَاجَ الْخَلِيجِ ، كَانَتْ اللَّيْلَةُ الْأُولَى فِي دُبَيِّ مَلِيْلَةً بِالتَّفْكِيرِ وَالتَّأَمُّلِ حَيْثُ سَاعَمْتُ مُعَلِّمًا لِلغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي وَزَارَةِ لِتَرْبِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ ، فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي تَعَرَّفْتُ عَلَى تَفَاصِيلِ دُبَيِّ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ ، وَتَضَلَّلْتُ قِيَمَ الْوَنَامِ ، أَيقَنْتُ وَأَنَا أَتَأَمَّلُ مَعَالِمَ الْحَضَارَةِ الْمُبْتُوَّةِ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ وَالْأَرْكَانِ ؛ أَنَّ تَحَدِّيَّاتِ جَمَّةٍ رَافَقَتْ عَمَلِيَّاتِ الْإِنْجَازِ ، ذَلَّلَتْهَا حِكْمَةُ الْمَعْفُورِ لَهَا - بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى - الشَّيْخُ زَايِدُ بْنُ سُلْطَانَ أَلْ نَهْيَانِ ، وَالشَّيْخُ رَاشِدُ بْنُ سَعِيدِ آلِ مَكْتُومِ - طَبَّبَ اللَّهُ تَرَاهُمَا ، حِكْمَةً حَوْلَتْ التَّحَدِّيَّاتِ إِلَى نَجَاحَاتٍ وَإِنْجَازَاتٍ . أَجِدُ نَفْسِي بَعْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ عُقُودٍ ؛ أَعَانِقُ أَمْوَاجَهُ ، أَخْطُ بِقَلْمِي قِصَّةَ مَدِينَةِ أَحْبَبْتُهَا ، وَدَوْلَةَ تَعَلَّقْتُ بِهَا شَعْفًا ، يَمُرُّ بِخَاطِرِي ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَامِ ١٩٨٠ خِيَطَ ذِكْرِيَّاتٍ مَمْتَدٍ ، أَتَمُنُّ أَمَامِي مَنْظُومَةَ الْإِنْجَازَاتِ فِي شَتَى الْمِيَادِينِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَالبُنَى التَّحْتِيَّةِ وَالْإِفَاقِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ . فِي امْتِدَادِ إِنْسَانِيَّاتٍ مُنْتَاعِمٍ مَعَ الْعَالَمِ أَجْمَعِ ، أَحَاطِرُ ذَائِي : كَيْفَ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الطُّمُوحَاتُ ؟ وَتَكَلَّلَتْ بِالنَّجَاحِ هَذِهِ الْإِنْجَازَاتُ فِي حِقْبَةِ زَمَنِيَّةٍ قَصِيرَةٍ ، فَجَبِيبُ الْوَاقِعِ الْحَضَارِيِّ وَالضَّمِيرُ الْإِنْسَانِيُّ ؛ بِوُجُودِ رُؤْيٍ طُمُوحَةٍ تُعَانِقُ النَّرْبَا ، وَخَطَطِهَا الْعِلْمِيَّةِ ، لَدَى قِيَادَةِ فِكِيمَةٍ أَمْنَتْ بِالْقِيَمِ طَرِيفًا ، وَبِنِبَاءِ الْإِنْسَانِ دَيْدِنًا وَرَفِيفًا ، وَبِالْإِمْتِدَادِ الْإِنْسَانِيِّ صَدِيقًا ؛ فَتَسَامَتْ وَتَعَالَتْ فِي إِبَاءِ وَشُمُوحِ وَعَطَاءٍ ، فَعَانَقَتْ الْمَرِيخَ ، بِأَطْبَافِهَا الْوَاقِعِيَّةِ ، وَانْتَمَائِهَا لِلْإِنْسَانِ فِي مَعَاقِلِ لِبْنَاءِ الْبَشَرِيِّ وَفَقْ مَنْهَجِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا تَعْرِفُ الْمُسْتَحِيلَ ، تَزْنُو لِلْمَرْكَزِ الْأَوَّلِ وَتُجَمِّدُهُ أَخْلَاقًا وَعَمَلًا ، أَيَقُونَةُ الْعَالَمِ ، وَمَحَبَّةٌ وَتَسَامُحٌ وَبِنَاءٌ. أَعُودُ إِلَى صَفْحَةِ مِيَاهِ الْخَلِيجِ ، تَرْتَفِعُ الْأَمْوَاجُ ؛ أَهْمَسُ فِي مِيَاهِهِ ، يَا خَلِيجُ عَلَى شَوَاطِئِكَ قِصَّةَ حَضَارَةٍ بَنَاهَا الْإِنْسَانُ ، تَعْلُو أَصْوَاتُ الْأَمْوَاجِ ؛ وَمَاذَا بَعْدُ ؟ يَمْتَزِجُ صَوْتُ حَجْرَتِي مَعَ الْأَمْوَاجِ الْعَالِيَةِ ، يَرُدُّ الصَّدى ؛ وَتَسْتَمِرُّ الْحِكَايَةُ .